القراءة

الكتاب كريشة الرسّام، إنْ أمسكَ بها قليلُ التمرُّن اضطربت وأحدثت خللاً، وإنْ تناولها الماهر المتمرّن أبدعت وأخرجت ما ينطق بالحسن والجمال، وكذلك الكتاب يقرؤه شخص ما فيسيء فهمه، أو يخرج منه صفرُ اليدين، ويقرؤه شخص آخر فيتزوّد منه علماً وأسلوباً ومنهاجاً.

يظنُّ بعضهم ان القراءة سهلة ولكنها في الحقيقة عمل غير يسير إذا أُريد بها أن تكون نافعة. ان القدرة على القراءة وعلى هضم الأفكار المكتوبة والانتفاع بها فن لا يعرفه إلّا القليلون، ومن المجهود الضائع أن يبذل طالب المعرفة وقته وحماسته في قراءة غير نقدية وغير مركزة.

على طالب العلم والمعرفة أن يتعلّم كيف يقرأ، وليضع أمامه حقيقة هامة، هي أنه يُتوقّع منه أن يقرأ كثيراً، وأن يطلّع على مجموعة كبيرة من الكتب، وألا يفوته مرجع ذو أهمية في موضوعه، وعمل كهذا يحتاج إلى أعوام طويلة لا تتوافر غالباً للقارئ الهادف، وللتغلّب على هذه المشكلة يجب أن يعرف القارئ نظام القراءة السريعة لبعض الكتب.

ليمسّ القارئ النبيه بعض الكتب مسّاً خفيفاً بقراءة بعض الصفحات أو الفصول، وليقرأ بعضها الآخر قراءة سريعة عابرة. ولكنه يجب أن يستجمع قدرته على التعمق والدراسة والتحليل والاستيعاب عندما يمسك بكتاب من الكتب القليلة التي تستحقّ عناية خاصة، هذه الكتب القليلة يجب أن يقرأها في يقظة، وأن يقرأ ما بين سطورها، وأن يعيش مع مؤلفيها حتى كأنه هو.

تشبه الكتب الطعام، تذوقه أحياناً ثم تدعه بعد أن تعرف عناصره ونكهته وتزدرده أحياناً ازدراداً سريعاً، ولكنه إذا كان لذيذاً - وقليلاً ما يكون - فإنك تمضغه في رفق وأناة، طلباً للذة والمتعة.

بفضل القراءة الجيّدة الهادفة، نعرف ما لنا من حقوق فنطالب بها، وما علينا من واجبات فنسرع الى تأديتها.

بفضل القراءة نبحر في عوالم كبار سبقونا فنتمسّك بأصالتنا، نطّلع على ابن رشد الذي أهملناه وأفاد منه الغرب في دعوته إلى التمييز الفكري، وعلى واقعية ابن خلدون في «مقدمته»، وعلى الروح النقدية التي دعا إليها المعتزلة..

بالقراءة ننشئ، عبر التربيتين المدنية والأخلاقية اللتين دعونا الى إدراجهما في مناهجنا، المواطن الصالح والإنسان الفاضل. هكذا نضع أسس جيل واعٍ مثقف يتحمل المسؤولية، ويدرك انه درع الوطن يحميه ويصدُّ عنه الشدائد والمحن.

هكذا، يحترم شعبنا النظام في عقر داره ويطيع القوانين ويتقيّد بنصوصها، ليتجنّب المتاعب، وليكون جديراً بالعيش الكريم.

هكذا، يُدرك مواطنونا ان حريتهم تنتهي إذا تجاوزت حرية سواهم؛ يتخلى الأناني عن أنانيته، ويأخذ من الضروريات والكماليات ما يكفيه ليومه وغده، ليمكّن سواه من الحصول على ما يحتاج إليه.

في غمر الأوبئة وسائر الأزمات، فلنقرأ ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً، عسى ولعل..

د. جهاد نعمان

أستاذ في المعهد العالي للدكتوراه